# إرميا بشيرُ الخلاص
# والخلاص يؤدّي إلى العبادة الحقّة

رئيس التحرير

**مقدّمة**

يحتلّ موضوع الخلاص في أسفار الأنبياء عامّة، وفي نبوءة إرميا خاصّة، مكانةً مرموقةً، نتبيّنها من خلال الأقوال التي تتكلّم على الخلاص من المَحَن، والذي يبقى آخِرَ الأمر عطيّةً يهبها اللهُ لخائفيه المؤمنين به، والصابرين على ما يحلّ بهم، والراجين دون تردُّد أو تخاذل.

للخلاص في سفر إرميا أبعاد مختلفة، نذكر منها:

**١ – الخلاص الخارجيّ، وهو تَحَرُّرٌ من الاستعباد**

هناك بُعْدٌ مرئيٌّ للخلاص المعلَن، يقوم على كَسْر النير البابليّ، وعلى العودة من بلد المنفى، كما أيضًا على العبور من حالة سياسيّة من الاستعباد إلى الكرامة المستعادة لشعبٍ ما، يحكم ذاته بذاته، وقادرٍ على أن يعبّر بالعبادة لإلهه عن هويّته الدينيّة والثقافيّة التي تميّزه عن غيره.

هذا الوجه هو موصوف بنوع خاصّ في إر ٣٠: ٨–٩، ١٠ و١١[١]، مثلاً، حيث المقصود هو حَدَثٌ يُنسَب إلى الله؛ إنّه العلامة الجليّة لتدخّله في تاريخ البشر، لأنّ إسرائيل كان يبدو مهدَّدًا بالخراب، ومصيره كما كان للّعنةِ، ومشارك في حكم الخراب الذي أصدرتْه الشعوب.

تشكّل العودة من المنفى نوعًا من الخلاص العجائبيّ، يمكن الجميع أن يُبدوا إعجابَهم به وهم مذهولون: وحده إسرائيل ينجو (٣٠: ١١ب)، في حين أنّ كلّ الناس الباقين يختفون. من هنا أهمّيّة الواقع التاريخيّ للعودة من المنفى، كعلامة من الله، لكن أيضًا غموضه. في الواقع، لم يكن بمقدور التحقيق الملموس لنبوءة إرميا أن تتأوّن في القرن السادس، عند صدور براءة قورش؛ فلقد كانت هناك بالتأكيد عَوْدةٌ من المنفى، لكنّ الأمان الراسخ للبلاد تحت الحكم الداوديّ لم يتحقّق؛ لم يتمّ الخروج النهائيّ من الخطر، والتحرّر من الخوف، تَحَرُّرٌ هو بُعْدٌ جوهريّ للخلاص.

---

[١] إر ٣٠: ٨–٩، ١٠ و١١:

٨ وفي ذلك اليوم، يقولُ رَبُّ القوّات، أَكسرُ نيرَه عن عُنُقِكَ/ وأَقطعُ رُبُطَكَ، ولا يَستَعبِدُه الغُرَباءُ مِن بَعدُ،
٩ بل يَخدِمونَ الرَّبَّ إلهَهم، وداوُدَ مَلِكَهمُ الّذي أُقيمُه لَهم.
١٠ وأنتَ فلا تَخَفْ يا عبدي يعقوب، يقولُ الرَّبّ، ولا تَفزَعْ يا إسرائيل،
فإنّي أُخَلِّصُكَ مِنَ الغربة، ذُرِّيَّتَكَ مِن أَرضِ جلائِهم، فيَرجعُ يعقوبُ، ويَستَقِرُّ في الراحةِ والطُّمأنينة، ولا يُرعِبُه أَحد،
١١ لأَنّي معكَ، يقولُ الرَّبّ، لأُخلِّصَكَ، فإنّي أُفني جميعَ الأُممِ الّتي شَتَّتُّكَ بينَها،
وأَمّا أَنتَ فلا أُفنيكَ، بل أُؤدِّبُك بالحَقّ، ولا أُبرِئُك تبرئةً.

**٢ – الخلاص الداخليّ هو تَحَرُّر من الخوف**

ليست العبوديّة التي يعيش إسرائيل فيها هي فقط سياسيّة؛ الخضوع السياسيّ يُنتِجُ خضوعًا ذا بُعْدٍ خُلُقيّ، ونفسيّ، أي أن يشعر المرء بالكلّيّة أنّه مرتبط بإرادة الملوك المهيمِنة. شعور بالخوف، هو عدم الشعور بالاطمئنان على المستقبل الخاصّ، وعدم معرفة ماذا ينبغي أن يُعْمَل، وكيف الدفاع عن النفس، وكيف ينبغي أن يكون هناك رجاء. وبكلمة واحدة، نحن أمام الخوف من الموت. هناك بُعْدٌ شاملٌ وبُنْيَويٌّ للخوف يختبره الإنسان بالضرورة بسبب سرعة عَطَبِهِ الطبيعيّ[٢].

يصبح الخوف، الذي سبّبه الجيش البابليّ الغازي، بُعْدًا راسخًا، هو شعورٌ بالقهر يسيطر، ويحول دون التحرّك والعمل. هو شبيه بامرأة في حالة مخاض، تحت سيطرة القلق والوجع، كما نقرأ في إر ٣٠: ٥–٦، على سبيل المثال. يصبح المرء عبدًا للخوف[٣]؛ عند ذاك بالإمكان فقط التأوّه (رج إر ٣٠: ٧أ). يخلق الشرُّ المهدّد روحَ انحلال وتراجع، يستطيع العزاءُ الإلهيّ وحده أن يخلِّص منه.

مِن هذا الواقع يحرِّر اللهُ شعبه، مخلّصًا إيّاه (رج إر ٣٠: ١٠–١١)، ومتدخّلاً عبر حضوره (٣٠: ١١)، لكي يعطي من جديد ثقةً لمن أُصيبوا بالقنوط. لكن متى يتحقّق هذا الوعد؟

من الضروريّ بنوع أخصّ افتراضُ عبورٍ من خلال "اليوم العظيم" للقلق (٣٠: ٧)؛ يمكن الافتراض أنّ الخلاص هو نهائيٌّ (إسكاتولوجيّ)، على قدر ما الاختبار المعاش للموت هو جذريّ. وفي هذا "القلق المميت"، انفتاح الإيمان هو ضروريٌّ، هذا الإيمان الذي ينفتح على الله وعلى خلاصه الذي يبدو "مستحيلاً" ولو لم يكن كذلك، إيمان يُقرّ بذنْبه الخاصّ (لا أحد بريء: ٣٠: ١١ب)، ويدعو الربَّ منتظرًا تجلّيَه.

كلّ هذا يأخذ جسدًا في بوتقة المنفى، وفي الزمن الطويل الذي تلاه؛ عَبْرَ العصور اختبر إسرائيل أيضًا التهديد المميت والخوف الشديد من أن يتعرّض للدمار على يد قوّة الناس المتفجّرة (يمكن التفكير بسفر دانيال، وبسفر أستير)، ولكنّه عرف أن ينتظر نهاية التهديد (٣٠: ١١ب).

وجاء إنسان انتصر على الموت بشكل نهائيّ، مارًّا بالنزاع، وقائمًا لحياة لا تفنى؛ فيه هو يكشف الله مشيئته في أن يحرِّر: من تحرير من عبوديّة "رئيس هذا العالم"، وإعطاء الفرح للذين، بسبب الخوف، كانوا محبوسين في بيوتهم (يو ٢٠: ١٩)[٤]. يصبح انتصار الواحد، يسوع المسيح، مبدأَ انتصار للجميع. هكذا، وكما يقول مؤلِّف الرسالة إلى العبرانيّين: شارك الابنُ (يسوع) الأبناءَ، ليكسر بموته شوكةَ ذاك الذي له القدرة على الموت، أي إبليس، **ويحرّر الذين ظلّوا طوال حياتهم في العبوديّة مخافةَ الموت**" (عب ٢: ١٤–١٥).

**٣ – الخلاص هو تحرير من الخطيئة**

هذا البُعْد للخلاص، أي التحرير من الخطيئة، يُشار إليه في إر ٣٠: ٥–١١، وبالتحديد في الجملة الختاميّة، حيث يُقال: "أؤدّبك بالحقّ، ولا أبرّئك تبرئة" (٣٠: ١١ب). يصبح هناك بالتالي رباط بين الخوف (٣٠: ٥–٧) والخطيئة (٣٠: ١١ب)، بين بداية الوحدة الأدبيّة التي نحن بصددها وبين نهايتها، وفقط في الختام يُفهَم أنّه

---

[2] Cf. Bruna COSTACURTA, *La vita minacciata. Il tema della paura nella Bibbia ebraica* , Pontificio Istituto Biblico (collana Analecta Biblica), 2007, p. 26-28.

[3] Cf. Gunda. SCHNEIDER-FLUME, "Angst und Glaube", *ZThk* 88 (1991) 478-495.

[٤] "وفي مساءِ ذلك اليومِ، يومِ الأحد، كانَ التلاميذُ في دارٍ أُغلِقَتْ أَبوابُها خوفًا مِنَ اليهود..." (يو ٢٠: ١٩).

لا يوجد تحرير، لا من الإخضاع السياسيّ ولا من الخوف ما لم يكن هناك تَحَرُّر من الخطيئة التي هي سبب العبوديّة للغريب والخضوع للخوف. في إر ٣٠: ١١ب يجري الكلام على "عقاب" (יִסַּר): هي طريقة يُفْهَم بها نهاية الخطيئة، التي تضحي أقلّ تكلفة، ويكفَّر عنها، ويُدْفَع ثمنٌ عنها. في الوحدة التي تلي سيعود هذا الموضوع بشكل أوضح ومفصليّ (رج ٣٠: ١٤-١٥)؛ لقد كانت "الأمثولة" أو "العبرة" (מוּסָר) التي لقنّها الربُّ لشعبه قاسية، والشعب "صرخ" (זָעַק): تُفْتَح هنا الطريق لإعلان استعاريّ غير مباشر للغفران الذي يُعَبَّر عنه بوضوح في مقاطع أُخرى من هذا الجزء من السِفْر، خاصّة في ٣١: ٣٤: "سأغفر إثمَهم، ولن أذكر خطيئتَهم من بعد".

### ٤ – ما الذي يعدّ للخلاص

هناك عنصران هامّان يُعِدّان للخلاص:

– الأوّل مكوَّن من **الرثاء** (נִחוּם)، كما في مستهلّ ٣٠: ٧؛

– الثاني مكوَّن من تصميم متَّبَع في سفر تث، ألا وهو أنّ إسرائيل، عندما يجد نفسه في الألم، يتنهّد ويصرخ إلى الربّ الذي يتدخّل، مرسِلاً "مخلّصًا"، كما نتبيّن ذلك في قض ٢: ١٨؛ ٣: ٩، ١٥؛ إلخ.

بهذا المعنى قد يكون هناك تواصلٌ بُنْيَويٌّ بين تاريخ إسرائيل الماضي وتاريخه الحاضر؛ من المحتمل أن تكون خصوصيّة الحاضر هي خصوصيّة حالة بؤس أقصى، هي "يومٌ" يبدو أن "لا مثيل له"، ويمكن أن يُنظَر إليها على أيّ حال وكأنّها حالة نموذجيّة، كصورة رمزيّة عن الحالة التي تعني الموت؛ يقال شيءٌ من هذا القبيل عن يونان في بطن الحوت، أو عن دانيال في جبّ الأسود. العنصر الثاني الذي، وبطريقة غير مباشرة، يفتح على مفهوم الخلاص، كما في ٣٠: ٧، هو اسم **يعقوب**؛ بهذا الاسم يتمّ استحضار الوعود الإلهيّة التي تتحقّق بالحضور وبالدعم، والتي كان المستفيدَ منها أبو الآباء ونسلُه، كما نقرأ، مثلاً، في تك ٢٨: ١٣-١٥.

إنّ الخلاص الذي يهبه الله لشعبه يبقى دائمًا فعلاً حرًّا وذا طابع حرّ، أي أنّه غير مُلزِم لله، وهذا ما يبدو واضحًا، على سبيل المثال، في إر ٣١: ٣١-٣٤ حيث يجري الكلام على خطيئة إسرائيل ومسامحة الله له. إنّ تدخّلَ اللهِ الخلاصيَّ هو في العادة غير متوقّع، وقد يبدو للناظر دونَ أساس، ودون دافع واضح؛ من هنا تبرز صعوبة الإيمان بالله، وبصلاحه، وبوعوده، كما تبرز بالطريقة ذاتها، وقبل حلول الضربات، صعوبة تصديق الإعلان عن العقاب، وقد يكون ذلك بسبب عدم الإيمان بعدل الله.

### ٥ – لكن مِمَّ يتمّ التخليص؟

يخلّص اللهُ من زمن القلق والغمّ والقهر؛ هكذا، مثلاً، يخلص يعقوب أوّلاً من الخوف، الذي هو بمثابة الذروة الوخيمة والمدمِّرة لِلَّعنة التي تلحق به حتّى عمق أعماقه، فتحول بالتالي دون علاقة عاديّة وصافيَة في الحياة. يتمّ التعبير هكذا، أوّلاً، عن الخلاص بأنّه تعديل في بنية الضمير السقيمة، تؤدّي إلى التعبير عنها برثاءِ قلّةِ الثقة (נִחוּם) وبجسدٍ ذي مظهر سقيم. لذا يبدو الخلاص بأنّه أيضًا **تحرير ممّا سبّب الخوف**، كـــ"الغزو الآتي من الشمال"، مثلاً (رج إر ٤-٦)، أو سيطرة ملك بابل على الأرض كلّها (رج إر ٢٥ و٢٧-٢٨). سيُحذَف سبب الخوف بوجوهه المختلفة، وهذا ما يعلنه، مثلاً، إر ٣٠: ٨-٩، ١٠-١١.

**٦ – من التحرير إلى خدمة الله**

تشكّل "خدمة" الله نتيجة طبيعيّة لعمل الله الخلاصيّ الذي به يحرّر من عبوديّة الغرباء والخطيئة وغيرها. لكن لنتذكَّرْ أنّ عبادة الإله الحقّ هي شرطٌ للخلاص، تمامًا كما أنّ عبادة الآلهة الغريبة هي سبب مباشر للحكم على الفاعل بالعبوديّة؛ هذا ما نتبيّنه، على سبيل المثال لا الحصر، من إر ٨: ٢-٣؛ ١١: ١٠-١١؛ ٢٢: ٨-٩؛ إلخ. في الحقيقة، إنّ عبادة الآلهة الغريبة هي بحدّ ذاتها لعنة، كما ورد في تث ٢٨: ٣٦: "يذهبُ الرّبُّ بك وبمَلِكِكَ الذي تقيمُه عليك، إلى أمَّةٍ لم تعرِفْها أنت ولا آباؤُكَ، وتُعبُد هناكَ آلهَةً أخرى من خشبٍ وحجارة"؛ أنظر أيضًا تث ٢٨: ٦٤[٥]، مباشرةً قبل الآيات ٦٥-٦٧ التي تختم اللعنات التي تُعلِن الحكمَ بالخوف الدائم؛ إنّها العقاب الذي سبّبته عبادة الأصنام، كما نقرأ في تث ٤: ٢٨: "وتَعبُدونَ هناكَ آلهةً صُنع أَيدي بشر، مِن خشبٍ وحجر، لا تُبصِرُ ولا تَسمَعُ، لا تَأكُلُ ولا تَشتَمّ"؛ هذه الآية هي على ارتباط مع تث ٤: ٢٣:

"فتَنبّهوا لأَنفُسِكم مِن أَن تَنسَوا عهدَ الرَّبِّ إِلهِكمُ، الَّذي قَطَعَه معَكم،
فتَصنَعوا لكم تمثالاً منحوتًا لشيءٍ ممَّا نَهاكَ عنه الرَّبُّ إِلهُكَ"؛

هي كذلك على ارتباط مع إر ١٦: ١١-١٣:

"آباؤكم تركوني، كلام الربّ، وتبعوا آلهة أُخرى، و"خدموها" (וַיַּעַבְדוּם) وعبدوها...
أنتم فعلتم أسوا من آبائكم...،
لذلك أطردكم من هذه الأرض نحو أرض غير معروفة مِن قبلكم ومن قِبل آبائكم،
هناك تخدمون (וַעֲבַדְתֶּם) آلهة غريبة نهارًا وليلاً".

إنّ للإعلان النبويّ في إر ٣٠: ٩ ("بل يَخدِمونَ الرَّبَّ إِلهَهم وداودَ مَلِكَهمُ الّذي أُقيمُه لهم")، مثلاً، بُعْدًا خلاصيًّا مزدوجًا:

– الأوّل يرتبط بتقاليد الخروج، التي كانت ترى تتميم التحرير من بيت العبوديّة المصريّة في فعل عبادة الله على الجبل المقدّس:

. "قال: أَنا أَكونُ معَكَ، وهذه علامةٌ لكَ على أَنّي أَنا أَرسَلتُكَ:
إِذا أَخرَجتَ الشَّعبَ مِن مِصر، تَعبُدونَ اللهَ على هذا الجبل" (رج خر ٣: ١٢)؛
. "قلتُ لكَ: أَطلِقِ ابني لِيَعبُدَني" (خر ٤: ٢٣)؛
. "ثُمَّ قالَ الرَّبُّ لموسى: بَكِّرْ في الصَّباح وقِفْ أَمامَ فِرعَون، فها هو يَخرُجُ إِلى الماء،
فقُلْ له: كذا قالَ الرَّبّ: أَطلِقْ شعبي لِيَعبُدَني" (خر ٨: ١٦)...

---

[٥] **تث ٢٨: ٦٤:**

"ويُشَتِّتُكَ الرَّبُّ في الشُّعوبِ كلِّها، مِن أَقاصي الأَرضِ إِلى أَقاصيها،
وتَعبُدُ هناكَ آلهةً أُخرى لم تَعرِفْها أَنتَ ولا آباؤُكَ، آلهة خشب وحجارة".

لذلك فإنّ التحرير من نير بابل سيستتبعه فعلُ عبادة حرّة تجاه يهوه، فعلٌ يُقِرّ بأنّ المحرِّر من العبوديّة هو الربّ. لذلك أيضًا تربط العودة من المنفى بطريقة صريحة بإعادة بناء الهيكل في أورشليم (رج عز ١: ٢-٤)[٦]، و"بعدم إهمال بيت الله" (نح ١٠: ٤٠)[٧].

– أمّا المظهر الثاني، الذي لا يُعَبَّر عنه صراحةً، ولكنّه قد يكون أهمَّ من الأوّل، فهو التالي: كانت للاستعباد للأمم الغريبة نتيجة مرّة، ألا وهي عبادة آلهة هذه الأمم، وهذا من الموضوعات الهامّة في سفر دانيال، إذ كان ينبغي عبادة تمثال نبوكد نصر الذهبيّ (دا ٣)، وعبادة الملك فقط (دا ٦)، وعبادة بيل (دا ١٤). بتعبير آخَر، إنّ هذه الآلهة هي صنع يد الإنسان ليس إلاّ!

**خاتمة**

ممّا تقدّم يجب الإدراك أنّ التحرير الإلهيّ هو تحرير من الاستعباد لقوى الكذب والعنف، هذا الاستعباد الذي يشكّل بحدّ ذاته الخطيئة الجسيمة التي منها حرّر الله شعبه وخلّصه.

---

[٦] **عز ١: ٢-٤:**

٢ "قَدِمَ حَنَاني، أَحدُ إخوتي، هو ورجالٌ مِن يهوذا، فاستَخبَرتُهم عنِ اليهودِ الّذينَ نَجَوا، مِمَّن بَقِيَ مِنَ الجلاء، وعن أُورشليم.
٣ فقالوا لي: إنّ البقيَّةَ الّتي بَقِيَت مِنَ الجلاءِ هناكَ في البلاد هي في شقاءٍ شديدٍ وعار، وإنّ سورَ أُورشليمَ مُنَهَدِّمٌ، وأبوابَها قد أُحرِقَت بِالنّار.
٤ فلمّا سَمِعتُ هذا الكلام، جَلَستُ أَبكي وأَنوحُ أَيّامًا، وصُمْتُ وصَلّيتُ أَمامَ إِلهِ السَّماوات".

[٧] **نح ١٠: ٤٠:**

"لأَنَّه إِلى هذه الغُرفِ يَحمِلُ بنو إِسرائيلَ وبنو لاوي تقادمَ الحنطةِ والنَّبيذِ والزَّيت، حيثُ آنيةُ القُدْسِ والكهنةُ الخادمونَ والبَوّابونَ والمُغَنّون، فلا نَترُكَ بيتَ إِلهِنا".